حارس عناقيد الحصرم

بقلم :

عزمي لبيب

مع كل غروب ..

تتجمع العصافير في حديقة منزلنا ، وتتنقل فوق اغصان الاشجار بحركات رشيقة قلقة .. وتظل تغرد برقرقتها الشجية الى أن يأتي المساء فتهدأ تماما .

وتشير حديقتنا المستدة حتى مجرى النهر ، بزهورها النادرة وثمار الفاكهة وعناقيد العنب . وهناك الكرمة الكبيرة تظلل الطريق المحاذي لمجرى النهر .

وما يكاد حدى ينتهي من طعام الافطار حتى يهرع الى الكرمة .. كان يفضل الجلوس في ظلها .. ينظر الى العناقيد ويكاد يحصيها .. وعلى البعد يتحرك عم يوسف الجنايني على ساقيه وقد انحنى ظهره فوق حوض النباتات العالية ، ويرفع النباتات من داخل الاصص ويعرسها بعناية في باطن الارض المبللة بالماء ، ثم يجمع حولها التراب بكلتا يديه .. كان يشتغل حافي القدمين ، وقد لف حاصرته بحبل من الليف المجدول . ورفع جلبابه الى مافوق ركبتيه . كانت قدماه عريضتين بهما اخاديد متشققة عميقة ، تنم منهما اصابع يابسة منحرفة ، كان العرق يتحدر في خيوط خلف أذنيه ، ومن جبينه على وجهه ثم ذقنه . وعندما صفعت ريح نشطة من الشمال ، استدار عم يوسف كي يلتقط نفسا عميقا يلتمس به شيئا من الراحة .. فينحر حدى ساحطا بلمن .. ويوجه له الشتائم بصوت مرتفع . لابد أن شتم الذين يعملون عندنا ، و «الفترجة» على الناس ترضي نزعة التعالي عند حدى . ولقد اتسم سلوك حدى ـ ولا سيما في المدة الاخيرة ـ بشبكه المطلق وحدة الطبع .

مقتنعا أن سلوكه هذا يكسبه مزيدا من الاحترام . وبين الحين والآخر يرفع عم يوسف ـ في صمت ـ عينين دليلتين ويحدق الى السماء .

كان حدى يفضل الحديقة على كل شيء .. لم يكن يعطي من نشاطه واهتمامه الا للحديقة ولاختي « ناني » التي لم تجاوز الثامنة من عمرها . وعلى أثر صياح حدى المتابع مع عم يوسف أخذت « ناني » تجري ـ في شقاوة ـ فوق الممرات الرملية وتقفز فوق أحواض النباتات متجهة ناحية الكرمة ، دون أن تكترث الى النباتات العالية التي افسدتها بقدميها اللينة من غير قصد ، وينظر اليها حدى بتعجب وبصيح مزمجرا .

ـ ياشيطانه ! عليك اللعنة ! قلت لك الف مرة احدى ! انا استوردت البذور من فرنسا وايطاليا .

وتعجب « ناني » وتخفي وجهها بيديها الصغيرتين . وتنطوي في صمت على نفسها .. بينما يحاول حدى استعطافها وبرنت على ظهرها .. ويردد بصوت تغلب عليه العطمة .

ـ لقد نهتك اكثر من مرة ياناني .

ثم يضمها الى صدره .

وفجأة ! تقفز ناني فوق حديقة وتقف عليها بقدميها الطريتين وتمسك اذنه وتشد الشعرات البيض . فيرفعها الى أعلى كي تقطف العنقود الذي يروق لها .

بعد أن تضع يديها داخل جـــورب من القطن .

وفي شـــقاوة ، تجري « نانى » من جانبه فيسقط منها العقـــود .. ومرة أخرى تقفز فوق أحواض الســـاتان .. ويلاحقها صوت جـــدى بشرات حادة . وتختفي عن وجهه تماما .

وبقدر ماكان جـــــدى يحب زهوره وثماره .. كان لا يستطيع أن يحتمـــل بعد « نانى » عنه ! ربما لانهـــا الطفلة الوحيدة في المنزل . وربما يرى فيهـــا صورة من صور طفولته . ويظل يجوس داخل الحديقة ويطير خلف الاشجار .. وعـــندما يبلغ به التعب .. يقف فوق راس عم يوسف ! وهـــو عاقتى، يجمع الاعشاب الضارة ويضع بعضها داخـــل بعض .. ويسأله قائلا :

ـ اين ثمار المانجو التى تسقط من الشجر .. انى ارى معالمهـــا فوق الحشائش ولا أجدها .

ويرفع عم يوسف عينـــيه كسيرتين ويلوذ بالصمت .

ـ تكلم ياعجوز اين تذهب الثمار ؟

كنت في ذلك الوقت ، اوشـــك أن انتهى من امتحان « بكالوريوس » الطب لذلك لم أكن اعطى من انتباهى لما يقع في الحديقة بل كانت تتســـاقط على الاحداث تلقائيا .. من ثورة جـــدى العارمة ، التى كان صداهـــا يتنقل الى داخل المنزل . ومن حركات نانى القلقة واسئلتها الحائرة .. هل جـــدى جاء هنا ؟ هل جدى كان هنا ؟ ثم تتوثب كى تختفى من جديد ! ويتسلل بحث جدى الى داخل المنزل ويظـــل يلف ويدور داخل الحجرات .. ويسأل عنها امها .

في هذه اللحظات ؟ كان يظهر عماد « نانى » وشقاوتها ايضا .. كانت تحمل الزهريات ، التى وضع جدى بداخلهـــا زهوره النادرة ، وتضعها على التوالى في حجرة نومه ، فيعرف أنها كانت هنا ! ويعود من جديد يفتش المنزل ويلف ويدور داخل الحجـــرات .. ويتعثب وتهـــدح أنفاسه !

وبعد قليل من الوقت ، دخلت « نانى » باب حجرتى ودخلت وهى تجر ساقين متخاذلتين .. وتمســـحت بالمكتب وقد ظهر الضيق على وجهها المستدير وطواها تفكير طويل ! ثم همســـت بصوت مخنوق :

ـ جدى طـــرد الحمايمى .. عجيبه والله .. ثم تسطرد مبهورة .

ـ ضبط مع ابنه عنقـــود حصرم ! عنقود حصرم يقطع رزق الراجل ، جدى أصبح لا يحتمل .

ونظرت الى « نانى » طويلا ! وقد علقت بأهداب عينيها حبتان من اللؤلؤ ، ومسست لهجتهـــا الوديعة نفسى ! وجثم على صدر الحجرة سكون ثقيل . وبعد فترة صمت راحت بينما قلت بهدوء :

ـ تصرفى .. تصرفى أنت .. أنا مشغول .. عندى امتحان ..

ولم أستطع أن اقف بجانب « نانى » او ـ حتى على الاقل ـ أسند رغباتها !

كان سلوك جدى العدائى للجميع ، يقف حائلا بينها حسيما .. كان جدى شديد التعلق بالشقيب عن الاحطاء . وكان هذا سببا للهروب من « نانى » ثم ربت على ظهرها بحنان وأغلقت خلفها الباب . وانصرفت للمذاكرة .

وقبيل الغروب ، شاهدت جدى ـ من شرفة حجرتى ـ يسير بجانب « نانى » فوق ممرات الحديقة في طريقه الى الكرمه وخلا لى أن أراقبهما . وقد ملأنى احساس بالغبطة وأنا أتتبع حركاتهما وانطلاقهما كان جدى يدفع نانى كى تبعد العصافير عن الكرمة . وتجرى نانى وتقفز وتلهث . وصغيرة شعرها الطويلة ـ ذات الشريط الابيض ـ تتراقص خلف ظهرها . وجدى يلاحقها وعيناه معلقتان الى أعلى .

وأحب أن أنسى واقعة عم يوسف الجمايلي وابنه ! وسألت نفسي بصوت سمعته أذناي ! هل تحب «ناني» في اعادة الجمايلي ؟! واجتاحني احساس بالشك !! وتذكرت حادثة الخادمة الصغيرة التي طردها جدي منذ أسبوعين بحجة أنها لم تعد تقدم لناني الاحترام الكافي .. وأن الخادمة ستبيت خلال حياتها معنا ، أن «ناني» من فتيات الأسر الارستقراطية .. كما كان الناس يقولون في الماضي .

فقد نزع جدي القرط الذهبي بعنف من أذن الخادمة ، التي لم تبلغ العاشرة من عمرها . ثم فتح الباب ودفع بها الى الشارع بقميصها المهلهل القديم .. وبدلت «ناني» بصاري جهدها كي تستأنف الخادمة العمل .. عندئذ ! وقفت بحذاء «ناني» ، واوضحت لجدي أن الخادمة تحمل لناني حافظة الكتب .. وتصفر لها شعرها .. وتلعب معها .. وأن سلوك الخادمة لايسوءه العيار ، لمثل سنها .. ولكن محاولتنا مني بالفشل . وأصر جدي على موقفه !! منذ ذلك اليوم ، باتت تصرفاتي معه جامدة .. خالية من اي عاطفة ، واصبحنا لا نتكلم معا الا بدافع الضرورة ..

وأخذت أملأ رئتي بنسائم العصر الطرية ، وعطر زهور حديقتنا العواج . وقد هبت ريح باردة من النهر .. وعلى البعد سحابة قاتمة تتقشع رويدا رويدا عن سماء وحاجية زرقاء .. كانت الريح تدفع براعم الشتائل في دوامات من الهوا .. ونهر ليل يسبات متمهلا في ضوء الشمس الذهبي . والطريق المحاذي للكرمة يعرق في سكون ووحشة . وكان «ناني» تقترب من السور الحديدي وتنظر الى الطوين والى مجرى النهر .. كانما تنتظر شيئا !! ربما كانت تأمل أن تلمح خادمتها الخاصة التي حرمت منها . او ترى عم يوسف الجمايلي وهو يعبر الطريق خلف السور .. ومرة بعد مرة يرتفع صوت جدي مؤكدا أن بنات العائلات العريقة لا يتصرفن هكذا .. ويأمرها أن تبتعد عن السور ..

ومع الغروب ، أخذ أولاد الاحياء المجاورة يتوافدون على الطريق المحاذي للكرمة .. كان يحلو لهم اللعب في ظل الكرمة .. كانوا يجرون ويلعبون في تشكيلات غير منتظمة وفي مرح وعيونهم غير مستقرة .. ينظرون دائما الى داخل الحديقة .. وعندما كانوا يلمحون جدي بجسمه المترهل وهو يتربص خلف السور ، يتصرفون الى العناء ويبتعدون ..

وبين الحين والآخر كنت أسمع ـ وأنا واقف في الشرفة ـ صدى طلقات بندقية الصيد .. فتخرس أصوات العصافير وتدوب الزقزقة الأخيرة مع صدى الطلقات . ويهبط السكون فجأة ! ولسبب أو لآخر !! يضيق صدر جدي ويمتلىء بالحقد والغضب .. ويجري بطول الكرمة كي يرهب الأولاد ! وكثيرا ماكانت تتكرر ـ أثناء لهوهم ولعبهم ـ هذه المداعبات أو المشاجرات .. لست أدري لماذا اسميها ! .. لكن في هذه المرة ـ رغم اختلاف مداركهم وأعمارهم ـ اتفقوا جميعا على أن جدي يقف ضد مرحهم ولعبهم .. فتصيدوا له .. وللاسف تصور جدي أنهم يتحدونه .. فامسك خرطوم المياه وأخذ يصوبه نحو الطريق ونحو الأولاد ! فبلل ملابسهم وتعالى صياحهم .. وتكرهب الجو فجأة ! وكأنما شحن بطاقة من السخط !! ولا سيما عندما سقط أحدهم في الوحل .. فاتسخت ملابسه وسال الدم من أنفه . ومن جديد صمتت أصوات متشنجة صاخبة . ولم تكن «ناني» ولا الاولاد ينتظرون أن يحدث كل هذا !

ويصيح جدى بصوت مرتفع جدا :
ـ لا تقتربى منهم ياناني ..سأصنعهم جميعا في الملاجيء .
وتستجمع ناني شجاعتها وتقترب من السور ، ثم تسألهم برقة :
ـ ماذا تريدون ؟!
ـ نريد أن نلعب .

وتبتسم ناني في حبور وتهمس قائلة :
ـ جدى يقول أنكم تفسدون الثمار .
ـ جدك ؟! جدك المتوحش .
ويتفجر الاولاد بالضحك والسخرية وتظهر علامات عدم الرضى والحرج على وجه ناني .. ويقترب أحد الاولاد من السور الحديدى ويهمس قائلا :
ـ ماذا لا تلعبين معنا ؟!

وفي ارتباك تلتفت « ناني » الى الخلف حيث يقف جدى ثم تهمس قائلة :
ـ جدى يغضب .. جدى يغضب .
ـ من جدك هذا ؟! من جدك هذا ؟!
ومرة أخرى تهمس « ناني » :
ـ مدحت باشا الشماشرجي .
ويسود بينهم صمت . ويغرق المكان في جو غير متماسك .. لكنه مفعم بالود . وتنتشر همهمات وأسئلة خرساء .. يطغى عليها صوت جدى وهو يصيح مزمجرا :

ـ تعالى ياناني . تعالى بسرعة ..
اتركي الامر لى أنا .. سأدعو البوليس .
وفي ثورة الغضب ، يندفع جدى ناحية « ناني » فيصطدم بالخرطوم وهو مازال بين يديه ـ فيختل توازنه ، ويقع على حافة حوض النباتات وتمتد فوق الحشائش المبللة بالماء .

وفي ناديء الامر .. أغرقني صوت ارتطام جسم جدى بأرض الحديقة . وبدون أى تفكير قفزت من الشرفة ، وأسرعت الى الكرمة .. كان جدى يرقد في سكون تحت الكرمة ، ويضع مرتفع وقد تهشم زجاج نظارته الذهبية .. فتسلخ جبينه وظهرت بقع الدم في اشكال غير منتظمة وسال على وجهه . والاولاد ينظرون اليه مشدوهين للمفاجأة وناني تقف بجانبه مضطربة . وقد تمدد بجانبه ظله على نحو مخيف ! وكان الهواء اللافح قد اشتدت حرارته وأوشكت الارض أن تكتسي لونا رماديا .. وبعد ان مسحت وجهه بطرف منديل امسكت ذراعه اليمنى واخذت اجس النبض وفتحت عينيه ونظرت فيهما . ثم أمرت بنقله بحرص الى حجرته . كان الثوب المبلل بالماء والعش عالقا بملابسه . وبعدئذ اعطيته حقنة «كورامين» لتنشيط الدورة الدموية . كان يضع يده فوق قلبه ويئن بصوت خافت ويتنفس ببطء وفي الخارج ماتنشت العصافير تضرب بأجنحتها المصاريع المدلاة . وكانت «ناني» تتحرك في قلق وتدخل الحجرة على أطراف قدميها ! وتطل في وجهه الشاحب ثم تخرج ببطء ! وعلامات الانكسار وأسى تفيض على جوانحها . وحينما كاد يقترب من التحسن شعرت بالاطمئنان عليه . واسدلت ستائر النافذة واغلقت عليه الباب وتركته للراحة . ثم طلبت من «ناني» أن تذهب لتنام .

ومن جديد انصرفت الى المذاكرة .. وبين الحين والآخر كنت القي نظرة طويلة عبر الشرفة تنتهي ـ في النهاية ـ فوق الكرمة التي اكتظت بالعناقيد .

وفي الصباح مات .
وبسرعة وبهدوء تقلصت الى مدفن العائلة .

ومع ضوء الشمس الغاربة ، رأيت عم يوسف الخبايني وهو يستقبل الاولاد كي يقدموا العزاء لناني .